على الغلاف

جعفر البكلي

«لنقتُل هذا الرجل»

ساد وجوم ثقيل مجلس الملك السعودي، في قصر الناصرية. وبدا أمراء آل سعود وكأنّ على رؤوسهم الطير. وحاول الملك أن يلطّف شيئاً من كآبة الموقف، وجهامة وجوه زوّاره، فأخذ يسألهم الواحد تلو الآخر: «وش حالك يا فلان؟»، فيرد: «بخير، يا طويل العمر». حتى إذا وصل الملك سعود إلى عمه عبد الله، أجابه عميد الأسرة السعودية، وقد انفجر غيظه: «أحوالنا خرا!». ارتبك الجميع، وهم يسمعون تلك الكلمة توجّه إلى صاحب الجلالة، وامتقع وجه الملك سعود. وحاول الشيخ يوسف ياسين، وجمال الحسيني، وهما مستشارا الملك يومئذ، أن يتدخلا ليهدّئا من روع الرجل الجليل في العائلة المالكة السعودية. فنَهرَهما عبد الله، وهو يرتعش من الانفعال. ثم قام من مكانه، واتجه نحو ابن أخيه، وقال له: «انتا وين رايح بآل سعود؟!». ولم يدع الأمير للملك الذاهل فرصة للإجابة، فأكمل مزمجراً: «للحضيض! للأرض الحضيض! لجهنم والله!». قال الأمير كلماته، ثم نفض بيده طرف عباءته، وانصرف من المكان عابساً، وسط ذهول الحاضرين.

حصلت هذه الحادثة مساء يوم الجمعة 7 آذار/ مارس 1958. وعبّرت الكلمات الغليظة التي تفوّه بها الأمير عبد الله بن عبد الرحمن آل سعود تعبيراً قاسياً عن أخطر أزمة عائلية شقّت صفوف الأسرة الحاكمة في تاريخها الحديث. وكانت تلك الأزمة قد تفجرت بعد افتضاح مؤامرة دبّرها الملك سعود لإطاحة الجمهورية العربية المتحدة، وانكشاف خططه لاغتيال الرئيس جمال عبد الناصر عبر تفجير طائرته في الجو. ولعل غضبة أمراء الأسرة الحاكمة لم تكن بسبب خطيئة الملك، واشتراكه المباشر في ارتكاب جريمة، بل كان حنقهم بسبب إدارته البائسة للعملية، وتخطيطه الأخرق لها. فلقد سُحِبت أمواله حتى آخر فلس، ثم كشفت رشوته وشيكاته، أمام العالم أجمع، وقُبض على أزلامه وأعوانه ووسطائه. فأضحى سعود أضحوكة، وأمست سمعة آل سعود في الوحل، بعدما خاب تدبيرهم، وانكشف إجرامهم.

«طويل العمر يسلّم عليك، ويقول لك: انسف الطيّارة»

بدأت القصة، قبل أسبوعين، في سوريا التي وصل إليها عبد الناصر، صبيحة يوم 24 شباط/ فبراير 1958. واستقبل السوريون الزعيم المصري الذي أصبح رسميّاً رئيس الجمهورية العربية المتحدة، استقبالاً خرافياً. وأخذ عبد الناصر، في تلك الأيام، يطوف في المدن السورية، ويخطب في الجماهير المحتشدة لسماع كلماته. وبلغ الإنهاك من ناصر مبلغه، بسبب سفراته المتواصلة إلى كل أرجاء البلاد. وفي مساء يوم الثلاثاء 4 آذار/ مارس 1958، أراد الرئيس أن ينام قليلاً ليستريح من تعبه. ودخل إلى الغرفة التي أعدّت، في قصر الضيافة، لنومه. وبدأ يخلع ثيابه ليلبس «البيجامة». لكنه فوجئ برجل يدلف إلى الحجرة، ويقف وراءه مبحلقاً بينما هو منهمك في استبدال ملابسه. كان الرجل هو المقدم عبد الحميد السرّاج، رئيس المخابرات العسكرية السورية، المعروفة بـ«الشعبة الثانية». وبدت على وجه عبد الناصر دهشة من هذا المتطفل، ممزوجة ببعض الانزعاج. وبادر السرّاج إلى الاعتذار عمّا يفعله، قائلاً: «أنا آسف لأني عم ازعجك. بس في موضوع مهم لازم خبرك فيه». وردّ ناصر: «يعني الموضوع ده، مش ممكن يستنّى لبكرا مثلاً؟». قال السرّاج بإصرار: «لا. هي مسألة ما بقدر أجّلها». ظهر الفضول على وجه الرئيس، فقال: «طيب. قول يا سيدي. أديني سامعك». ظلّ السرّاج منتصباً، وأخذ يتكلم بجدية بالغة، قائلاً: «سيدي. الموضوع طويل، ويتعلق بالملك السعودي». أشار الرئيس إلى مخاطبه لكي يقعد، فجذب السراج كرسياً، وجلس عليه. قال عبد الناصر، وهو يبتسم ليجعل السرّاج أكثر تبسّطاً في حديثه: «طيب، ممكن أتمدد ع السرير شوية. أصلي هلكان من التعب». ابتسم السرّاج باستحياء، وقال: «سيدي خذ راحتك. أنا ما كان بدي أشغلك بالشي اللي بدي قلك اياه، لولا خطورته».

شرع السراج يروي ما لديه قائلاً (1): «الملك سعود متزوج بسيدة سورية كُنيتها «أم خالد» (2). وأبوها اسمه أسعد إبراهيم. اتصل فيني الزلمة، قبل كم يوم، عن طريق وسيط. الوسيط هو النائب عزيز عياد. قابلت هادا أسعد إبراهيم، فبخبّرني إنو ملك السعودية عم يعرض عليي ملايين الجنيهات الاسترلينية، إذا بقبل قوم بانقلاب ضد الوحدة بين سوريا ومصر. أنا سايرتو، لأعرف شو في براس أسيادو. وفعلاً، بيبعتلي سعود دفعة قيمتها اتنين مليون جنيه استرليني، مشان يرشيني». سكت السرّاج قليلاً، ومدّ يده الى جيب سترته الداخلي، وأخرج منه مجموعة من الأوراق، قدّمها لعبد الناصر الذي قام من فراشه متحفزاً، وقد ظهرت عليه الدهشة والاستغراب. قال السرّاج مشيراً إلى الوثائق التي أعطاها لعبد الناصر: «وهي صور تلات شيكات من الملك سعود بعتلي ياهون، بيوم ست وعشرين شباط: الشيك الأول بمبلغ مليون جنيه استرليني. والتاني بمبلغ 700 ألف. والتالت بمبلغ 200 ألف. وهي الشيكات مسحوبة من البنك العربي المحدود بالرياض، على بنك ميدلاند، بلندن. وتدفع لحاملها. وفي كمان تسجيل لكلام أسعد إبراهيم معي». صمت السرّاج قليلاً، وترك عبد الناصر يتفحص الشيكات، ويتثبت منها. ثم أضاف السرّاج موضحاً سرّ المئة ألف الناقصة: «أسعد ابراهيم مبعوث سعود خصم لإلو من أصل المليونين جنيه اللي بعتلي اياها الملك، مبلغ مية ألف، قال على اعتبارها عمولتو». لم ينطق عبد الناصر بكلمة، بل ظل شاخصاً ينظر إلى السرّاج، وينصت لكلامه بانتباه، فاستكمل الأخير روايته قائلاً: «ومشان أسعد يشجعني أكتر، أعطاني رسالة شخصية من الملك كاتب فيها إنو أنا مثل ابنو، وهو مش رح يتخلى عنّي ورح يساندني، متل ما كان أبوه عبد العزيز يعمل مع شكري القوتلي (3). وقال لي إنو السفير الأمريكي بالشام مستعد يعلن اعتراف بلادو بالنظام الجديد فوراً. كمان، الملك بيضمن لي اعتراف كل الدول الصديقة لأمريكا بالوضع الجديد بسوريا». ابتسم عبد الناصر، وهو يستمع لهذه النقطة في الحديث، واستطرد السراج في حكايته قائلاً: «بصراحة، أنا من لما استلمت الشيكات ما قدرت استنّى ليطلع الضو. تحركت فوراً مع مجموعة من الضباط الموثوقين. واستدعيت واصف كمال مدير البنك العربي بدمشق، واللي حوّل السعوديين المبلغ عن طريق فرعهم بالرياض. واستدعيت، كمان، نائب مدير البنك وكم معاون إلو، حتى يشرفوا، من وش الصبح، على عملية سحب المبالغ من بنك ميدلاند وتحويلا على حساب جديد باسمي، فتحو بسويسرا». ولم يكن ذلك هو كل شيء. أكمل السرّاج قائلاً لعبد الناصر: «الأخطر من كل هاد. هو إنو مبعوث الملك سعود عطاني عبوة ناسفة لأزرعها بطيّارتك اللي بتطلع فيها، فتنفجر بالجو». أطبق الصمت في الحجرة لبرهة من الوقت. ولم يقطعه سوى كلمات السرّاج: «ومشان أقتلك رشاني الملك بمبلغ ميتين وخمسين ألف جنيه استرليني». صمت السرّاج ثوان، ثم أضاف: «أنا رفضت هالمهمة واعتذرت لمندوب سعود عن تنفيذها. بس ضلّيت عم حقّق بتفاصيل المؤامرة، فعرفت إنو الجماعة قدروا يجندوا ضابط طيار ليقصف طيّارتك بالجو، وبعدين يهرب على تركيا ويطلب اللجوء فيها. قبضنا ع الطيّار الخاين. ورجالي عم يحققوا معو هلأ».

كان خطاب عبد الناصر في دمشق مدوياً ضد آل سعود

«هل صدّق أهل المدينة ما قاله عنّا الحاسدون؟!»

كان خطاب عبد الناصر الذي ألقاه من دمشق، يوم 5 آذار/ مارس 1958، مدوياً. فقد كشف فيه للعالم العربي الوجه الآثم لآل سعود. وفي الرياض، كان وقع الاتهامات مزلزلاً. كانت المملكة، في عهد سعود، تشهد أحلك أيامها: خزينة مفلسة بسبب المصاريف المفرطة، وسياسة متخبطة لم تبق لها على صديق، وأسرة حاكمة مفكّكة بسبب استئثار الملك بسلطة مطلقة، وتحيّزه لأبنائه على حساب إخوانه، وسمعة مشبوهة تلوكها الألسن وتمضغها الأفواه. وكان أمراء آل سعود يكادون يتميّزون من الغيظ. وسأل الأمير طلال عن أخيه الملك، فقيل له إنه موجود في قصره بالمدينة المنورة. وكلّم طلال أخاه، عبر الهاتف، وسأله إن كان قد سمع اتهامات عبد الناصر له، وما تعليقه على ذلك؟! فأجابه سعود بأن لا ينزعج، وأن يأتي إليه. واستقل طلال طائرة، وجاء إلى قصر أخيه في المدينة. ويروي طلال كيف دخل على الملك في مجلسه، فوجد عنده أعيان المدينة، وبينهم نائب أميرها عبد الله السديري. وسأل سعود جلساءه قائلاً: «ترى أهل المدينة صدّقوا اللي قالوه عنّا الحاسدين؟!». وصمت الجميع، وكان صمتهم أبلغ من كلامهم. وأحسّ طلال بالوجيعة من هذا الحال الذي وصل إليه آل سعود، فخاطب أخاه الأكبر، قائلاً له: «بالله يا طويل العمر بيّض وجوهنا. لو تركنا اللي ينقال من غير ردّ، سوّدت الفضيحة وجوهنا. واحنا خمسة آلاف من آل سعود، وين نروح بوجوهنا؟!». وتمتم سعود قائلاً: «أبشر! أبشر! ما يخالف. ما يصير إلا الخير».

> اجتمعت مجموعة من الأمراء في قصر الأمير طلال وقرّروا أن يطلبوا من أخيهم الأكبر فيصل تولّي الحكم

في الغد عاد سعود إلى الرياض، فلقي من عمه عبد الله ذلك التوبيخ الذي لم يسمعه منه قبل ذلك أبداً. واكتأب سعود، فاعتكف في قصره، لا يخرج منه، ولا يُدخل عليه أحد. ثم إنّ الملك السعودي اغتاظ، وحزّ في نفسه كيف انقلب حاله. وأمر حرّاسه أن يأتوا له بمدير «البنك العربي» في الرياض مقيّداً في الحديد. فجاؤوا بالسيد مصباح كنعان من مقر عمله، بعد أن كبّلوه وأهانوه أمام موظفيه وعملائه. ووقف المصرفي المسكين، وهو يرتعش من الخوف أمام «طويل العمر». شهد تلك الواقعة الغريبة محمد سرور الصبان وزير المالية السعودي. وكان الملك يصيح حانقاً: «كيف تعطون شيكات للسرّاج، تتاخذ دليل ضدنا. المفروض ما تعطوه الصكوك». وردّ كنعان قائلاً أنه لم يفعل سوى ما أمره به الديوان الملكي، ولديه توقيعان من وزير المالية الصبان، ومن رئيس مؤسسة النقد السعودي معتوق حسنين يأذنان فيه بتحويل المبلغ المذكور. ولم تعجب سعود هذه الإجابة، فأمر بحبس الرجل، وإغلاق فروع بنكه في المملكة كلها. واهتزت السوق المالية السعودية من هذا التصرف الأهوج. وأخذ كبار الأمراء يسحبون أموالهم من بعض المصارف، وتبعهم عامة الناس. وأغلقت الفروع البنكية أبوابها أمام الزبائن، فتحولت مطالبات المواطنين بسحب أموالهم إلى ما يشبه التظاهرات. فجأة هبطت قيمة العملة السعودية هبوطاً مدوياً، في ظرف أيام قليلة، من 3,75 ريال مقابل الدولار الواحد، إلى 6,5 ريال. وأصبح المشهد السعودي كله كئيباً!

اجتمعت مجموعة من أمراء آل سعود في قصر الأمير طلال المعروف بـ«الفخرية». كانوا تسعة أمراء: عبد الله، وعبد المحسن، ومشعل، ومتعب، وطلال، ومشاري، وبدر، وفواز، ونواف. وقرّروا أن يطلبوا من أخيهم الأكبر فيصل بن عبد العزيز تولّي الحكم بدلاً من سعود. ثم إنّ هذه المجموعة سريعاً ما قويت شوكتها، بعد مساندة العم عبد الله بن عبد الرحمن لها، ومعه السديريون الذين يتزعمهم فهد. والشقيقان محمد وخالد. لكنّ المعضلة تمثلت في إقناع ولي العهد نفسه بأن يمسك بمقاليد المملكة. كان فيصل رجلاً مريضاً، وكان يعاني من أمراض كثيرة، ولقد عاد من أميركا قبل شهور قليلة، بعد أن عولج في أحد مستشفيات نيويورك من سرطان غير خبيث في معدته. وتحوّل «الرجل ذي السحنة الكئيبة» إلى رجل نافر من الحكم. فلما عرض عليه أن يكون ملكاً بدلاً من أخيه تمنّع. بيد أنه بعد أن رأى إجماع إخوته عليه، قبل المهمة، مشترطاً أن يظلّ سعود ملكاً صورياً لكي لا يحدث عزله انشقاقاً في وحدة **الأسرة المالكة، وأن توكل كل سلطات الحكم الفعلية له وحده. وفي ليلة 24 آذار/ مارس 1958، وكانت إحدى ليالي رمضان، جاء آل سعود إلى أخيهم يحملون إليه نبأ نزع سلطاته، وإبقائه صورة بلا وظيفة. غضب سعود، وقال لهم إنه ليس ملكة بريطانيا. وأجابه محمد ذو الشرّين: «أحسن لك تقبل باللي عرضناه عليك، بدل نخلعك من المُلك كله». ساد الصمت المجلس. وجال سعود بعينيه في وجوه عمه وإخوته، فلم ير منهم إلا نفوراً منه. أطرق برأسه، ثم قام من مقعده، وتمتم قائلاً إنه يوافق على نقل صلاحياته إلى فيصل. وكان ذلك اعترافاً منه بنهايته.**

الهوامش:

(1) أخبر الرئيس عبد الناصر في صباح يوم 25 شباط/ فبراير 1958، مرافقيه بتفاصيل ما قاله له السرّاج في الليلة الماضية. وكان محمد حسنين هيكل من بين أولئك الرفاق. ورجا هيكل السرّاج أن يسجّل بصوته قصته مع ملك السعودية، على شريط «كاسيت». ولما أراد هيكل، بعد ثلاثين عاماً، أن يكتب مؤلفه «سنوات الغليان»، استعان بالشريط القديم الذي سجّله للسرّاج، فاستعاد التفاصيل الدقيقة لحكاية سعود مع رجل الشعبة الثانية. ودوّن هيكل ما ذكره السرّاج في الصفحات 299 إلى 305، من كتابه المذكور.

(2) أم خالد، واسمها جميلة أسعد إبراهيم مرعي. هي الزوجة التاسعة للملك سعود، من بين أربع وأربعين زوجة للرجل. تزوجها سعود، سنة 1926، بعد أن بلغه جمالها، وكانت ما زالت طفلة لا تتجاوز الثانية عشر من العمر. ودأبت «عيون» سعود وأبيه وإخوته على تصيّد الفتيات السوريات المليحات، دوماً. ولعلّ غايتهم كانت تحسين نسلهم وتجويد صورته. وأنجبت جميلة لسعود ثمانية أبناء، أكبرهم خالد الذي تولى رئاسة الحرس الوطني السعودي، في عهد أبيه. وكان أسعد إبراهيم مرعي (والد جميلة) رجلاً فقيراً من اللاذقية. وعرفه الناس سارقاً للحمير. وقبض عليه، ذات مرّة، ودخل السجن بسبب سرقة حمار. لكنّ أسعد تبسم له السعد بعدما تزوجت ابنته من الأمير سعود بن عبد العزيز، فصار فجأة من كبار الأثرياء.

(3) من سوء الحظ، أنّ شكري القوتلي، وهو الرئيس السوري الأول بعد الاستقلال، كان على رغم وطنيته، موالياً لآل سعود أكثر من اللازم. وكانت علاقته بالملك عبد العزيز وأبنائه وطيدة، فقد عاش في كنفهم منذ سنة 1926. وظلّ عدد من أفراد أسرة القوتلي يعملون في التجارة داخل المملكة السعودية زمناً طويلاً. وبحسب ستيفن لونغريج، مؤلف كتاب «سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي» (ترجمة بيار عقل، دار الحقيقة، ص: 59) فإنّ القوتلي كان يؤيد إعادة النظام الملكي إلى سوريا، في حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين. ورشّح القوتلي الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود، ليكون عاهلاً في دمشق. لكنه فشل في تحقيق مساعيه.

وحينما طلب عبد الناصر من السرّاج أن يخبر شكري القوتلي بما رواه له عن تآمر الملك السعودي، خشي الضابط السوري الكتوم أن يفشي «المواطن العربي الأول» - كما لقّبه ناصر- ذلك السر للسعوديين. ولم تكن العلاقة بين السراج والقوتلي طيبة، فقد كان الأول يعلم ارتباطات الرئيس السوري السابق الوثيقة بآل سعود. لكنه مدفوعاً بإلحاح عبد الناصر، حكى قصة غدر الملك السعودي، للقوتلي. وصدقت مخاوف السرّاج فعلاً، فقد أفشى القوتلي للسعوديين ما أُبلغ به. وذكر لهم أنّ مساعيهم وخططهم قد انكشفت لعبد الناصر. وأحسّ السرّاج بالحنق لما اعترض ضباطه، بعد سويعات، برقية مشفّرة من السفارة السعودية في دمشق، مرسلة إلى الديوان الملكي، تقول: «تأكد أنّ البناية مغشوشة».

«بن سلمان الحقيقي»

عامر محسن

«لقد تكلّمت للتوّ مع وليّ العهد السّعودي. وهو ينفي بالكامل أن تكون له أي معرفة بما جرى في القنصليّة» - دونالد ترامب

عن خاشقجي

لمن يعرف اللغة الدبلوماسيّة، كانت التصريحات الأميركيّة في الأيّام التي تلت اختفاء جمال خاشقجي تدلّ على أمرٍ واضح: أنّ المخابرات (التركية والأميركية) أصبحت تملك كلّ المعلومات عن ما جرى داخل القنصليّة، وأنّهم يعرفون أن خاشقجي لم يعد على قيد الحياة، والّا لما تكلّم المسؤولون الأميركيون بصيغة العارف، وانتظروا جلاء الأمور.

توجد عدّة نظريّاتٍ عن الأسباب التي قد تكون دفعت بالنّظام السّعودي الى التّخلّص من الرجل، يلخّصها الكاتب البريطاني جون برادلي الذي عمل الى جانب خاشقجي في الإعلام السعودي وعرفه شخصيّاً. هناك سرديّة أن بن سلمان قد "غضب" على الكاتب المنشقّ، وطفح به الكيل حين قدّم عرضاً شخصيّاً لخاشقجي - قبل أسابيع قليلة - بالتصالح والعودة الى البلد، فارتاب الكاتب السّعودي ورفض (اليوم، من يلومه؟)، فأضمر له النّظام الشرّ. هذه النظريّة هي الأضعف، مقارنة بمقولة يسوقها برادلي، عن أنّ خاشقجي يمتلك معلوماتٍ "محرجة" للسعودية حول العلاقة القديمة مع "القاعدة" وهجمات 11 ايلول. يذكّرنا برادلي بأنّ خاشقجي كان مستشاراً ومعاوناً لرئيس المخابرات السعودية، تركي الفيصل، وكانت وظيفته تحديداً هي في تنسيق العلاقة مع "القاعدة" واسامة بن لادن، ومحاولة عقد مصالحة مع النّظام. وقد تكون في عهدة خاشقجي، من هنا، أسرارٌ ودلائل من النّوع الذي قد يحمي الانسان أو يؤدّي الى مقتله (كما هو معروفٌ، استقال تركي الفيصل من منصبه في المخابرات قبل أيّامٍ من هجمات 11 ايلول عام 2001).

أمّا النظريّة الثالثةً فهي تلك المعاكسة تماماً، أيّ أنّ خاشقجي كان يعمل ايضاً مع المخابرات الأميركيّة (هناك بالفعل عواملٌ تشير الى "معاملة خاصّة" من قبل الحكومة، منها حصوله على فيزا "او" بشكلٍ سريعٍ وسهل، وهي تأشيرة اقامة تُعطى عادةً للمبدعين في مجالاتهم على مستوى عالمي، وخاصة في مجالات العلم والفنون، وليس لكتّاب الأعمدة). برادلي وغيره يلمحون الى خطّةٍ ترعاها دوائر ضمن الحكومة الأميركيّة، وهي ترمي الى "تحديث" النظام السعودي واستبدال الملكيّة المطلقة بنظامٍ أكثر تمثيليّة، يفتح الباب لتيّارات جديدة (من بينها "الاخوان») للمشاركة في الحكم، وأنّ خاشقجي كان مرشّحاً لأن يلعب دوراً في هذا المشروع. يزعم برادلي أنّ "النقطة الحرجة" كانت حين أسّس خاشقجي في اميركا حزباً باسم "الديمقراطية في العالم العربي الآن" («داون" أو "فجر" بالانكليزية)، وأنّ تحوّل المستشار السعودي السابق الى "معارضٍ" مواجه علنيّ، يقود حزباً يهدف الى تمكين أعداء العرش، وتحديداً "الاخوان»، في العالم العربي، وله وجودٌ وتمويلٌ وقاعدة في اميركا، هو تحديداً ما يخشاه النظام السّعودي ولا يريده أن يتحقّق مع واجهةٍ مثل خاشقجي.

قضيّة خاشقجي، اذاً، قد يكون فيها بعدٌ سياسيّ ومخابراتي من الممكن جدّاً أن لا يتّضح وأن لا نعرفه ابداً، أو يظلّ سرّاً معلناً، مثل تفاصيل عمليّة الاغتيال، التي تتم اليوم - في الكواليس الدبلوماسية - محاولات طمسها وتغطيتها. هذا الجانب السياسي مهمٌّ لتفسير ما جرى، وإن كان الإعلام الذي يرفع قضيّة خاشقجي اليوم، على أنّها حصراً قضيّة رأي وصحافي تمّ إخفاؤه، لا يأتي على ذكره كما يجب (وخاشقجي نفسه، على عادة الكثير من العرب الذين قضوا حياتهم في وظائف سياسية ومحابراتيّة، كان يفضّل أن ينكر دوره الحقيقي في تعريفه لنفسه، وأن يقدّم نفسه حصراً كـ«كاتب» أو "باحث»). ومن الواضح ايضاً أنّ عمليّة "التفاوض" حول إخراج الجريمة قائمة، ولا يهمّ هنا أن يكون العذر مضحكاً (نظريّة "الاغتيال بالخطأ خلال الخطف" تشبه أن يدفع متّهم بالبراءة عبر القول بأنّه أراد سرقة المنزل لا أكثر، وأن قتله للمالك كان خطأً مؤسفاً، قضاءٌ وقدر) طالما أن الحكومات تقبل بها ولا تشكّك رسميّاً؛ بل يمكن القول أنّ "المزاد" قد ابتدأ مع اختفاء خاشقجي وبدء التسريبات - حين يقول أردوغان، مثلاً، أنّه يتمنّى "نتيجة ايجابية" مع السعوديين، وهو يعرف يقيناً أن الرّجل قد قُتل ولم يعد بيننا، فهو بالتأكيد لا يشير الى "نتيجة ايجابية" بالنسبة الى خاشقجي.

عن النّظام السعودي

لهذه الأسباب، هناك مبالغة في من توقّع أن توصل قضيّة خاشقجي الى "مواجهة" بين السّعودية والعالم الغربي، ولا يصحّ ايضاً أن هذه الجريمة ستمرّ وكأنها لم تكن. حين تصل المسألة الى الحسابات الفعليّة، لا الأميركيّون يريدون خلافاً مكلفاً مع الرياض حول اختفاء فرد، وهناك خطواتٌ كثيرة يمكن تنفيذها قبل الوصول الى الخلاف العلني. ولا تركيا في مصلحتها أن تقطع علاقاتها مع بلدٍ اقليميّ ثريّ، العداوة معه مريرةٌ ومكلفة، والسعودية تقدر في حالة العداء المفتوحة أن تؤثّر سلباً على تركيا بأشكالٍ كثيرة، فيما العكس ليس صحيحاً. العامل الأخير الذي يجب أن لا ننساه هو أنّ خاشقجي، رغم كلّ الاهتمام الذي لاقاه من الاعلام العالمي والنّخب، ليس مواطناً غربيّاً، فقيمة حياته ليست كحياةٍ مواطنٍ اميركيّ أو بريطاني، ولن تقوم حكومةٌ ولا جمهورٌ ناخب بالمطالبة نيابةً عنه - في اميركا، مثلاً، قلّةٌ من النّاس تعرف من هو جمال خاشقجي، ولا أحد سيغيّر تصويته لأنّ ترامب غطّى اختفاءه (الاستثناء البارز كان السناتور ليندسي غراهام، الذي أطلق موقفاً قاسياً ضدّ بن سلمان وطالب باستبداله). لا ضرورة لأن نكرّر بأنّ جرائم أكبر بكثير قد مرّت من غير أن تؤثّر على موقع السعوديّة في الغرب، والرّياض هي التي "تقاطع" دولاً غربيّة وتفرض عليها "عقوبات" (كما جرى مع المانيا وكندا) وليس العكس. اسرائيل، بالطّبع، سرّبت تعليقاً عبر موقع سعوديّ لتؤكّد أنّها "تصدّق" سردية الرياض ولن تتخلى عن حليفها بن سلمان.

حتّى لا نخدع أنفسنا، لو كانت المصالحة السّعودية - القطرية سائرة الى اليوم، لكان خبر خاشقجي قد خفت في الإعلام العربي منذ زمن، وظلّ محصوراً في دائرة المعارضين السعوديّين. وتعاطف المعسكر القطري معك له جانبٌ ايجابيٌّ ومكربٍ في آن. هم، من ناحية، سيتفرّغون للدفاع عنك ونشر قصّتك - طالما أنّه أمرُ اليوم - وسينسون قضاياهم الوطنية و«ثوراتهم" مؤقّتاً. ولكنّهم، من جهةٍ أخرى، سينعونك ويجزمون بأنّك قد قُتلت وقُطّعت ارباً بعد دقيقتين على اختفائك، طالما أنّ المصلحة السياسية هنا (عرفنا شعوراً مشابهاً حين كنّا طلاباً جامعيين في لبنان، وكانت مشكلتنا مع الدولة ليست في أنها تقمعنا، بل أنها لا تكترث لنا، وقد فرحنا أشدّ الفرح حين تمّ اعتقال بعض الرّفاق، لأنهم كانوا يوزعون مناشير أو شيئا من هذا القبيل، وأذكر نكبتنا حين رأيناهم يعودون الينا بعد أقلّ من نصف ساعة مبتسمين - ونحن على وشك الاتصال بأهلهم لنبلغهم بأن الطاغوت قد اعتقل اولادهم، وهم على الأرجح يتعرضون للتعذيب).

غير أنّ القضيّة الأكبر هنا لا تتعلّق بشخص خاشقجي، بل بالتغييرات العميقة داخل السعوديّة والتي كشفت القضية عن بعض جوانبها. كما يقول أسعد ابوخليل، فإنّ تحوّل البلاط السعودي من نمط "حكم العائلة" الى "حكم الفرد" قد أدّى الى نتيجتين: أوّلاً، أصبحت أفعال السياسة السعودية أقلّ "محافظةً" وبطأً وأكثر تهوّراً (فهي لم تعد تعتمد على بناء توافق بين أجنحةٍ متعددة)، ولم يعد في البلد "الهامش" الذي كان موجوداً في السّابق للنّخب، حين أمّن تعدّد مراكز القوى تعدّد مصادر "الحماية»، وبحريّةٍ للتعبير والنقد تحت السّقف العام. أمّا اليوم، فإنّ الولاء المطلق هو فرضٌ، والسّجن والاعتقال أصبح احتمالاً سريعاً لأيٍّ كان؛ وعليك اظهار هذا الولاء وابرازه باستمرار. بل إنّ عدم المشاركة في حملات الدّفاع عن النّظام، أو الصّمت، اصبح دليلاً يكفي لإدانتك. هنا تصعد "الحالة التوتاليتارية" التي نراها في الإعلام السعودي وبين مشاهير وسائل التّواصل، حيث المبالغة في التعظيم والجميع يتسابق على "تسجيل حضوره»، ويزايد على الباقين حتّى لا يبدو أقلّ حماسةً منهم، حتّى نصل الى مستوى سوريالي في الخطاب (والدّافع هنا، بالطبع، هو الخوف).

قلّةٌ تتكلّم عن الجوّ الذي يعيشه السعوديون اليوم، نخباً وشعباً، تحت حكم بن سلمان، والمخاوف الكثيرة التي تحكم حياتهم بشكلٍ لم يعرفوه في السّابق. هذا، في الحقيقة، كان من الأسباب التي دفعت بخاشقجي (على حد قوله) لترك السعوديّة حين "لم يعد الجوّ محتملاً»، بمعنى أنك لم تعد تملك حصانة من أيّ نوع، ولا تقدر على الكلام، ويُفرض عليك "التطبيل». يخبرني أصدقاء من السعودية عن انعدام الثقة بين النّاس، وأنّ من تقدر على الكلام معهم بحرية هي دائرة صغيرة تضيق باستمرار؛ وأنّك - حين تتكلم في موضوع غير شخصيّ روتيني مع سعوديٍّ لا تعرفه جيداً - يصبح الحديث شبيهاً "بالتورية وكلام العرّافين». بل أسرّ لي أحدهم بأنّهم يلجأون الى تراث الفرق السريّة في الاسلام: أن تنسحب من الصدارة والواجهة قدر الإمكان، أن لا تتكلّم في الأمور السياسية علناً، وأن تخفي رأيك وتكتفي بالمعارضة السلبية الى حين زوال العاصفة.

وفي أوقاتٍ كهذه، تحصل "تجارب اجتماعية" مثيرة. فيقول صديقٌ سعوديّ أنّهم يعتبرون الاعلاميين والمثقفين، مثلاً، أناساً "خطرين للغاية»، بمعنى أنك لا يجب أن تثق بهم، أمّا "الأخطر" على الإطلاق، يضيف، فهم فئة رجال الأعمال والموظّفين النّاجحين، فهم اسوأ العناصر وأكثرها اخلاصاً للنظام، وانت لا تريد أن تتكلّم أمامهم ولا أن تختلف معهم. أمّا من يعمل في أجهزة النّظام أو في إعلامه، فهو يمارس "التطبيل" كقدرٍ لا هروب منه، وضرورة "الوظيفة»؛ بل يُقال إنك لو التقيتهم على المستوى الشخصي، فقد تجدهم أشخاصاً دمثين لا يشبهون مزاجهم الكاسر في العلن، ويقولون لك ببساطةٍ أنّهم ينفّذون الأوامر (على الهامش: طالما أنّنا في جوّ أفلام المافيا والاغتيالات و«لعبة العروش»، أريدكم أن تلاحظوا أنّ وزير الخارجيّة السّعودي، عادل الجبير، يشبه الى حدّ عجيبٍ السّحرة المشعوذين في مدينة «كارث» فيما السفير الاماراتي في واشنطن، يوسف العتيبة، يحمل شبهاً صاعقاً بقائد جيش الخصيان للملكة «ديناريس» - استخدموا "غوغل" وقارنوا الصّور).

المفارقة، بالطبع، هي أنّ هذه الأمور كانت كلّها تجري فيما ماكينة دعاية الأمير، في الشّرق وفي الغرب، تتكلّم عن ولي العهد "المنفتح" وتمتدح خططه الاقتصادية ونشاطاته الترفيهيّة و«محاربته للتطرّف»، فيما الأمراء والنّخب ترتعد في منازلها. ومن بين هؤلاء - كما ذكّر الصحافي غلين غرينوولد - الكاتب الشهير في "واشنطن بوست" دايفيد اغناطيوس الذي، يضيف غرينوولد، له ماضٍ طويل في العلاقة مع المخابرات الأميركية والتماهي مع أجنداتها. اغناطيوس اليوم يلمّح - كصحفٍ غربية أخرى - الى احتمال أن يُستبدل بن سلمان بوليّ عهدٍ أكثر "أماناً" للنظام السعودي ولحلفائه. بهذا المعنى، قد تكون قضيّةٌ خاشقجي جزءا من تراكم طويل يؤدّي الى تغييرات داخليّة، وقد يكون ضربةً معنويّة تستغلّها أطرافٌ داخلية سئمت سطوة بن سلمان وبطشه. وقد لا يتغيّر شيء، وتشتدّ قبضة بن سلمان، ويدخل الإعلام العربي والسياسة في مرحلةٍ مظلمة شرسة، اسوأ حتى مما عرفناه في السنين الماضية. ولكنّ هذا كلّه في علم الغيب ولا تؤثّر عليه الحروب الإعلامية، بل يقرّر أساساً بين الرياض وواشنطن.

خاتمة: عن الأهمّ

في اليوم ذاته الذي بدأ فيه الرئيس الأميركي بالدّفاع العلني عن النّظام السعودي والتمهيد لتبرئة رأسه من وزر الجريمة، كان التّحالف السعودي - الأميركي يضرب، مجدّداً، باصاتٍ تقلّ أناساً فقراء في اليمن، وتقتل على الأقل 17 مدنياً. من المعيب أن نقارن شهداء اليمن بحبائل الاغتيالات والمخابرات، وكلّ ما ذكر أعلاه، حتّى وإن كان العالم يستمع الى "واشنطن بوست" ولا يصغي الينا. قضيّة الكاتب المختفي تصلح مادّة مثاليّة لإعلام البروباغاندا، من الجهتين، الذي يبحث امّا عن تزييف الواقع وتضييع الحقيقة، أو عن سرديّة "ضحيّة" مريحة، يمكن اخراجها تلفزيونيّاً، تجذب المشاهدين وتستخدم في البازار (ومن تاجر بالدماء لسنواتٍ لن يستنكف حين يُقتل خاشقجي). أمّا قضيّة اليمن وأهله، فهي "السياسة" بالمعنى الحقيقي: أن تقف في وجه القوّة، أن تحارب الظّلم حقّاً، خياراتٌ صعبةٌ وصراع على مصير الشّعوب ومستقبلها. بن سلمان الحقيقي عرفناه في اليمن والعراق وسورية، وعرفناه بأسماء متعددة، ولا نحتاج الى "اختطاف\اغتيال" حتّى نعيد النّظر في الأمر؛ والفارق بيننا وبين الأمريكان هو أننا نعرف أنّه، بالنسبة الينا، لن يكون من يخلفه أفضل منه.